التوالد الدلالي في التعبير القرآني
(دراسة دلالية في آية وسورتين مكيات)

The Semantic Reproduction in the Koranic Expressiveness "A Semantic "Study in a Verse and Two Makkan Suras

10.35781/1637-000-118-003

د. محمد عبدالرحمن السالمي*

*أستاذ اللغة والنحو المساعد في قسم اللغة العربية
كلية التربية- زبيد، جامعة الحديدة

الملخص

حاولت هذه الدراسة مقاربة التوالد الدلالي في الآية "36" من سورة الأنعام وسورتي: "الشمس" و "الضحى"، نظراً لما يحتله التوالد الدلالي من أهمية داخل البنى النصية

وكان المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج التحليلي.

وقد خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج:

فسبب اختيار الآية ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ الأنعام: ٣٦

تصدرها بأداة القصر "إنما" وخصوصية "إنما" في التعبير عن الإثبات والنفي في آن واحد، وطريقة النظم التي أتت عليها الآية، مما أشاع التوالد الدلالي في التعبير بالآية عن المؤمنين والعصاة والكافرين، كما اتضح من خلال الدراسة.

وسبب اختيار السورتين: سورة "الشمس" وسورة " الضحى" هو ابتداؤهما بالقسم، وتفرد نظم القسم فيها مما أدى إلى التوالد الدلالي فيهما، فالبنى الدلالية للقسم في سورة "الشمس" أسفرت عن:

1- التعبير عن الزمن من خلال القسم بالشمس والقمر والنهار والليل على التوالي.

2- الإشارة إلى وحدانية الله من خلال القسم بمظاهر الكون المتعددة المقسم بها من: شمس وقمر ونهارٍ وليلٍ وسماءٍ وأرض وإنسان.

3- اتصال "أل" التعريف كمحدد من محددات الدلالة بمظاهر الكون المقسم بها من: شمس وقمر وسماء وأرض يشير إلى وحدة الكون، فالسماء واحدة في كل مكان، والأرض واحدة في كل مكان، والشمس واحدة في كل مكان، والقمر واحد في كل مكان، ولذلك يختلف الليل والنهار من مكان إلى آخر.

وكذا النظم القرآني للقسم في سورة "الضحى" خاصة وفي السورة عامة أسفر عن:

1- الدلالة بالقسم بالضحى والليل إذا سجى بتعاقبهما منذ ابتدأت الخليقة إلى أن تنتهي على استمرار الوحي، فكان نزول هذه السورة إيذاناً بتجدد نزول الوحي إلى أن اكتملت الشريعة.

2- خصوصية التعبير القرآني في عطف الجمل الخبرية في سورة " الضحى" على الاستفهام التقريري لإشرابها معنى التقرير، وفي هذا ملمح من ملامح الإعجاز القرآني.

3- مناسبة دلالات المد التي انتهت بها الآيات الثمان الأولى من سورة الضحى للمعاني الممتدة

ISSN : 2410-1818

التي عبرت عنها الآيات، كما هو واضح تحليل ذلك في الدراسة، ومناسبة دلالات السكون في الآيات الثلاث الأخيرة مع التكاليف التي تضمنتها الآيات لوجوب سرعة امتثال الأمور التكليفية بما فيها من نهي وأمر لأنها لا تحتمل التراخي الذي يناسبه المد.

الكلمات المفتاحية: التوالد الدلالي، التعبير القرآني.

The Semantic Reproduction in the Koranic Expressiveness "A Semantic Study in a Verse and Two Makkan Suras"

Dr. Mohammed Adul-Rahman As-Saalmi*

*Assistant Professor of Language and Syntax,
Department of Arabic Language,
Faculty of Education-Zabid, Hodeidah University

Abstract

This study tried a comparison of the Semantic Reproduction in the verse "36" of Sura Al-An'aam the cattle and two Suras of Ash-Shams, the Sun, and Adh-Dhuhaa, the Morn inasmuch for what the Semantic Reproduction takes up of importance inside the textual structures. The study has been summarized to an enactment of results that assures this importance. So a reason for choosing the verse: "It is only those who listen (to the Message of the Prophet Mohammed (PUH)), will respond (benefit from it), but as for the dead (i.e. disbelievers), Allah will raise them up, then to Him they will be returned (for their recompense)" /36 headed by the restriction particle "It is only" and the exclusiveness of "It is only" in the expressiveness about the affirmation and the negation simultaneously. And the versification way on which the verse came, from what it popularized the Semantic reproduction in the expressiveness with the verse about the believers, the disobedient, and the disbelievers, as it has been clarified through the study. And the reason of choosing the two Suras: the Sura of "The Sun" and the Sura of "The Morn" is its beginning with the swear, and uniqueness of the swear versification in it from what it leaded up to the Semantic reproduction in it, so that the Semantic structures for Semantic reproduction in the Sura of "The Sun" resulted in :

(1) The expressiveness about the time through the swear with the sun, the moon, the daytime, and the night, respectively.
(2) The indication to the oneness of Allah through the swear with the multiple appearances of the universe from a sun, a moon, a day, a night, a sky, an earth, and a human.
(3) A relation of the definite article "Al-, the" as a determiner of the determiners of Semantics with the appearances of the universe swore with from a sun, a moon, a sky, and an earth indicated to the unity of the universe, so the sky is one in every place; the earth is one in every place; the sun is one in every place; and

ISSN : 2410-1818

the moon is one in every place, so the night and the day differ from a place to another.

1. So is the Quranic versification for the swear in Sura of "The Morn", in particular, and in the Sura, in general resulted in:

(1) The indication with the swear by the Morn and by the Night when it darkens (and stand still) with their succession since creation began to it ends on the continuation of the revelation till a completion of the legislation in accord with a reason the Sura descent in which the disbelievers alleged discontinuity of the revelation; the descent of this Sura was a foreshadowing in renewing of the descent of the revelation until the legislation got completed..

(2) Privacy of Quranic expressiveness in apposition of the interrogative clauses in Sura "The Morn" on the reporting interrogation in order to infuse it the report meaning.

(3) Relation of extension indications in which the first eight verses ended from the Morn Sura for the extended meanings about which the verses expressed as it is clear analyzing of that in the study, and relation the consonance indications in the three last verses together with the costs included y the verses for duty of speed of submissiveness of trust commands including an inhibition and a command, because they do not tolerate the inaction which is suited by extension .

The method followed in this study was the analytic method for the verse and the two Suras from what it resulted in the Semantic Reproduction about a summary of those results.

Key words: a comparison of the Semantic, Reproduction.

ISSN : 2410-1818

المقدمة:

تحتل الدلالة موقعا متقدما في الدراسات اللغوية المعاصرة، ففيها تتعالق الأدوات والأسماء والأفعال لتشكل بنية النص اللغوية، سواء كان النص آية أو سورة، أو عبارة أو جملا متعددة.

وتتوالد الدلالات في النص حيث تكتسب الألفاظ والجمل دلالاتها الخاصة من خلال العلائق التي تربط بينها، والتي يبرزها السياق.

ومن هنا جاء هذا البحث المعنون بـ" التوالد الدلالي في التعبير القرآني " لدراسة البنى الدلالية في آية وسورتين من القرآن الكريم لمقاربة التوالد الدلالي في هذه البنى وسبب اختيار الآية والسورتين تفرد النظم القرآني فيها ، فالآية تصدرت بأداة القصر " انما" وخصوصية " انما" في التعبير عن الإثبات والنفي في آن واحد وطريقة النظم التي أتت عليها الآية ، أما السورتان فقد ابتدأتا بالقسم ، وتفرد نظم القسم فيهما مما أدى إلى التوالد الدلالي فيهما على مستوى السورتين جميعاً

وقد توزعت الدراسة على ثلاثة محاور:

1.التوالد الدلالي في القصر بـ " إنما" في قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ الأنعام: ٣٦.

2.التوالد الدلالي في سورة " الشمس ".

3.التوالد الدلالي في سورة " الضحى.

وقبل الانتقال إلى المحاور كان لابد من أن تتوقف الدراسة قليلا لتوضيح وتحديد بعض المفاهيم والمصطلحات الأساسية، وهو ما حواه التمهيد.

ISSN : 2410-1818

التمهيد:

التوليد والتوالد الدلاليان: المصطلح والمفهوم:

1- التوليد الدلالي:

يقصد بالتوليد الدلالي أن شيئاً يولد من شيء، وهو نوعان:

أ- توليد دلالي لفظي صرفي، ويطلق عليه " التوليد الصوري" [1] وهذا النوع من التوليد يرتبط بظهور متوالية صوتية جديدة بمعنى معجمي جديد مثل ما هو الحال في المولدات الناتجة عن عمليات:

الاشتقاق: أي اشتقاق وحدة غير موجودة انطلاقاً من وحدة موجودة.

التعريب: أي صياغة لفظ أجنبي بما يتوافق مع النسق الصرفي والصوتي للغة العربية.

الاقتراض: أي تبني لفظة أجنبية كما هي.

النحت: أي صياغة لفظة واحدة من لفظتين أو أكثر.

وهناك صور [2] أخرى للتوليد الصرفي كتغيير حركة الكلمة مثل: خَزَانة وخِزانة، إذ أنه بالكسر يدل على الهيئة، والمثلثات على العموم تدل على ذلك، كما أن التوليد يحدث عن طريق إبدال صامت بآخر في كلمة مثل: وسواس ووتوات فتغيير الصامت أدى إلى تغير المعنى، فالوسوسة تفيد الشدة والوتوتة تفيد الأكثر شدة، كما يدخل التوليد الصرفي فيما هو جامد، فمن رجل ولّد راجلٍ، وإن لم يكن هذا النوع من التوليد من السعة في العربية.

ب- توليد دلالي لفظي معجمي، ويرتبط [3] بظهور معنى جديد بالنسبة لوحدة معجمية موجودة أصلاً في معجم اللغة، والسياق التركيبي يمثل المؤشر الأساسي الذي يزودنا بتعيين المولدات الدلالية، إذ لا نمتلك أي مقياس صوري داخل الوحدة المعجمية، فلا يمكن التعرف على المولد الدلالي إلاّ في إطار السياق الضيق للجملة أو المركب حيث تدمج الوحدة، وهذا النوع من التوليد الدلالي نطلق عليه مصطلح التوالد الدلالي.

---

(1) غاليم، محمد: التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم، ص49، دار توبقال للنشر – الدار البيضاء– المغرب، ط1، 1987م

(2) استفيد مع سابقتها من محاضرات الأستاذ الدكتور سمير شريف استيتيه.

(3) غاليم، محمد: التوليد الدلالي بين البلاغة والمعجم، ص49.

ISSN : 2410-1818

2- التوالد الدلالي:

ينتج التوالد الدلالي عن طريق استخدام المفردات المعجمية والصرفية في السياق التركيبي للجملة أو العبارة أو النص، وهنا تكتسب الكلمات دلالاتها الخاصة ومن أمثلة التوالد في الصيغة الصرفية مثلاً: التوالد في صيغة اسم الفاعل "قاتل" فصيغة اسم الفاعل "قاتل" كصيغة صرفية فيها سمتان:

الحاضر+ المستقبل، لكن يحدث التوالد لهذه الصيغة عند استخدامها في جملة مثل:

أنا قاتلٌ أباك وأنا قاتلُ أبيك.

فالملاحظ في الجملتين السابقتين أن التوالد وزع الصيغة، فأدى توزيعه إلى معنيين:

فـ "قاتلٌ" في الجملة الأولى: أنا قاتلٌ أباك = مستقبل فقط – حاضر.

و "قاتلُ" في الجملة الثانية: أنا قاتلُ أبيك = حاضر فقط – مستقبل.

فاختلاف صور التركيب يؤدي إلى اختلاف المعاني، يقول عبد القاهر الجرجاني: "إن من شأن المعاني أن تختلف بها الصور"[4]، فالسياق هو الذي يحدد معنى الكلمة، لأن" الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف بها معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف"[5]، و" المعنى اللغوي لا يدرس إلا من بعد العلم بالنظم، فلا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفراداً ومجردة من معاني النحو"[6]،و" السياق وحده هو الذي يستطيع أن يبين لنا ما إذا كانت الكلمة (قريب) مثلاً، تعني قرابة الرحم أو القرب في المسافة"[7] و" الكلمة منعزلةً ضربٌ من العبث، فلا بد من سياق يبرز دلالتها، وهو ما اصطلحوا على تسميته بسياق الحال"[8].

(4) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، محمد عبد المنعم خفاجي، ص399، ت 1977م، مكتبة القاهرة بمصر.

(5) السابق ص495.

(6) السابق ص386

(7) أولمان، ستيفن: دور الكلمة في اللغة، ترجمة وتقديم د/ ر كمال بشر، مكتبة الشباب بالقاهرة، 1975م.

(8) بشر، كمال: دراسات في علم اللغة القسم الثاني ص153، دار المعارف بمصر.

ISSN : 2410-1818

1- المحور الأول:

التوالد الدلالي في القصر بـ "إنما" في قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[الأنعام/ ٣٦].

القصر:

القصر في اللغة:

قال ابن منظور[9]: " القصر في كلِ شيء خلاف الطول، أنشد ابن الأعرابي:

عادت محورته إلى قصرِ... وقصرت من الصلاة أقصر قصراً، والقصير خلاف الطويل... والقصر الحبس قال تعالى:" حور مقصورات في الخيام" أي محبوسات في خيام من الدر مخدرات على أزواجهن في الجنان، وامرأة مقصورة أي مخدرة.

القصر في الاصطلاح:

هو تخصيص[10] شيء بشيء بطريق مخصوص، الشيء الأول هو المقصور، والشيء الثاني هو المقصور عليه، وله طرق متعددة:

طرق القصر:

للقصر طرق متعددة تتناسب والمقامات المتعددة التي تتطلبها حاجات المتكلم أو المنشئ، من ذلك: القصر بالنفي والاستثناء، والقصر بـ "إنما"، والقصر بـ "تقديم المفعول به والظرف والجار والمجرور، وكذا القصر بضمير الفصل وبتعريف المسند والمسند إليه والذي يهمنا في هذا المقام هو القصر بـ "إنما".

القصر بـ "إنما":

يقول البرقوقي فيما نقله عن الإمام عبد القاهر الجرجاني:" وأما إنما فموضوعها على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة، مثال الأول قولك للرجل: إنما هو أخوك، وإنما هو صاحبك القديم، لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقر به إلا أنك تنبهه الذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب، ومثله قوله المتنبي:

إنما أنت والدٌ والأب القا

(9) ابن منظور: لسان العرب، مادة "قَصَرَ"، دار صادر، بيروت – لبنان.

(10) إبراهيم، علي حسن داود: بدائع القصر في النظم العربي ص10، مطبعة الأمانة، 1407هـ.

ISSN : 2410-1818

لم يرد أن يعلم كافوراً أنه والد ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام، ولكنه أراد أن يذكره منه بالأمر المعلوم لينبني عليه استدعاء ما يوجبه كونه بمنزلة الوالد، ومثاله من التنزيل قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ وقوله عز وجل:﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾كل ذلك تذكير بأمر ثابت معلوم.

ومثال الثاني قول ابن قيس الرقيات:

إنمـــا مصـــعب شـــهاب مـــن اللـــــه تجلـــت عـــن وجهـــه الظلمـــاء

ادعى في كون الممدوح بهذه الصفة أنه أمر معلوم للجميع على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا في الأوصاف التي يذكرون بها الممدوحين أنها ثابتة لهم، وأنهم قد شهروا بها، وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذي لا يدفعه أحد... ومثل البيت قوله تعالى حكاية عن اليهود:" وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون" المعنى أنهم يدعون أن كونهم مصلحين أمر ظاهر معلوم، ولذلك أكد الأمر في تكذيبهم والرد عليهم فجمع بين ألا التي للتنبيه وإنَّ التي هي للتأكيد فقال:" ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون"[11].

وأحسن مواقع - إنما- التعريض[12]، يعرض عبد القاهر الجرجاني دلالة القصر بـ" إنما" فيرى أنها. " أقوى ما تكون وأعلق ما ترى في القلب إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه" [13]،ويمثل ذلك بقوله:" إنما نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى:" إنما يتذكر أولوا الألباب" أن يعلم السامع ظاهر معناه، ولكن أن يُذمَّ الكفار، وأن يقال إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم، في حكم من ليس بذي عقل، وإنكم إن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكروا، كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الألباب" [14].

ثم يشير إلى سبب إفادة "إنما" التعريض بالكلام، أنها "تضمن الكلام معنى النفي من بعد الإثبات، فقوله تعالى:" إنما يتذكر أولو الألباب" تضمن التصريح بامتناع التذكر ممن لا يعقل، فإذا

11) القزويني، محمد بن عبد الرحمن: التلخيص في علوم البلاغة شرح عبد الرحمن البرقوقي ص ص 145- 147.

12) السابق ص 147.

13) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز ص 354، تعليق أبو فهر محمود محمد شاكر – المدني، دار المدني بجده، ط3، 1413هـ

14) السابق.

ISSN : 2410-1818

أسقطت "إنما" من الكلام، فقيل:" يتذكر أولوا الألباب" كان مجرد وصف لأولي الألباب بأنهم يتذكرون" ولم يكن فيه معنى نفي للتذكر عمن ليس منهم"[15].

ومثال التعريض بـ "إنما" من الشعر "قوله:

أنا لم أرزق محبتها إنما للعبد ما رزقا

الغرض أن يفهمك من طريق التعريض أنه قد صار ينصح نفسه، ويعلم أنه ينبغي له أن يقطع الطمع من وصلها، وييأسَ من أن يكون منها إسعاف، ومن ذلك قوله: •وإنما يعذر العشاق من عشقا • يقول:" إنه ليس ينبغي للعاشق أن يلوم من يلومه في عشقه، وأنه ينبغي ألاَّ ينكر ذلك منه، فإنه لا يعلم كنه البلوى في العشق ولو كان ابتلي به لعرف ما هو فيه فعذره"[16].

التوالد الدلالي في القصر بـ" إنما" في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[الأنعام/ ٣٦].

يخبر الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة رسوله محمداً صلّى الله عليه وسلم أنه لن يستجيب لك في الإيمان بآياتنا إلا الأحياء الذين يسمعون أما الموتى الذين لا يسمعون فلن يؤمنوا، وفي هذا الإخبار:

1- تعريض بالكفار الذين لم يستجيبوا دعوة الرسول صلّى الله عليه وسلم إلى عبادة الله، أفاده القصر بـ "إنما".

2- تطمين للرسول صلّى الله عليه وسلم ألاّ يحزن على كفر الكافرين، لأن الله الذي خلقهم قادر على أن يبعثهم ويرجعهم إليه فيجازيهم على كفرهم.

ولكن هذا الإخبار الوارد على صورة القصر أيضاً يحيل على توالد دلالي نجم عن طبيعة التركيب اللغوي الذي وردت فيه هذه الآية، فأسلوب القصر " إِنَّمَا " يفيد قصر الاستجابة لدعوة الرسول صلّى الله عليه وسلم على فئة الأحياء الذين يعملون بما تمليه عليهم عقولهم فيسمعون من الرسول دعوته إلى الله إذ بلغهم، وذكرهم، وأنذرهم، فتذكروا، وآمنوا، فهم أحياء إذ استخدموا حواسّهم الاستخدام الصحيح، لأن الاستخدام الصحيح لهذه الحواس يقودهم منطقاً وعقلاً إلى الإيمان بالله، وحياتهم هذه تقودهم إلى حياةٍ أخرى، لأن الله الذي خلقهم يبعثهم بعد موتهم، ويرجعهم إليه فيجازيهم على أعمالهم " وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " [العنكبوت / 64]، كما يفيد أسلوب القصر " إِنَّمَا "

15) السابق ص355.

16) القزويني، محمد بن عبد الرحمن: التلخيص في علوم البلاغة ش، البرقوقي ص 147 – 148م.

ISSN : 2410-1818

قصر عدم الاستجابة لدعوة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم على فئة الموتى الذين لم يعملوا بما تمليه عليهم عقولهم، فلم يسمعوا من الرسول دعوته إلى اللّه، إذ بلّغهم، فلم يتبلغوا، وذّكرهم، فلم يتذكروا، وأنذرهم فلم ينذروا، ولم يؤمنوا، فهم موتى إذ لم يستخدموا حواسهم الاستخدام الصحيح، لأن الاستخدام الصحيح لهذه الحواس كان يقودهم منطقاً وعقلاً إلى الإيمان باللّه، ولما لم يؤمنوا، فهم موتى، لأنهم كفار، وحياتهم كلا حياة، وعملهم كلا عمل، " وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا " [الفرقان/ 23].

ولم تعبر الآية القرآنية بلفظ " الأحياء" مباشرةً وإنما أفدناه من إسناد الاستجابة إلى من يتصف بصفةٍ من صفاتها وهي صفة السمع ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ وهكذا فالقصر بـ"إنما" لا يفيد إثبات الخبر بعد "إنما" ولكنه يفيد نفي الخبر بعد إثباته، بمعنى أنه لن يؤمن بآياتنا الكفار الذين لا يسمعون، لتعطل حواسهم فلا تحزن على كفرهم، لأنهم كالموتى الذين لا يسمعون، أيعقل إيمان منهم؟ إنه يستحيل من الموتى إيمان، فكذلك يستحيل من الكفار إيمان، ثم يخبر اللّه سبحانه وتعالى في صدد تطمين رسوله صلّى اللّه عليه وسلم عن مصير هؤلاء الموتى الذين اقتضته قدرته فهم يبعثون ويرجعون إليه فيجازيهم على كفرهم، ولو أراد اللّه سبحانه وتعالى إيمانهم لأقدرهم على الإيمان كما هو قادر على بعثهم بعد الموت، ولكنه أراد منهم الإيمان به عن اختيار وفقاً لمشيئته تعالى التي خلقت للإنسان عقلاً كرمته به عن بقية المخلوقات، وهنا يكمن اختبار اللّه سبحانه وتعالى للإنسان الذي وهبه اللّه العقل، أيستثمر هذا العقل في معرفة خالقه، ورازقه، والمتفضّل المنعم عليه، فيستجيب عن طواعية لدعوة الرسول إلى اللّه فيؤمن به ويعبده بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه أم لا، وإذا لم يستثمروا عقولهم في الإيمان باللّه، فقد اقتضت مشيئة اللّه تعالى التي خلقت الحياة والأحياء زوال هذه الحياة والأحياء بإماتتهم، والدليل على ذلك ما يحدث في الحياة للأحياء من موت فيصبحوا موتى بعد أن كانوا أحياء، ومن ثمَّ يبعثهم اللّه بعد الموت ويرجعهم إليه فيجازيهم على أعمالهم: الكافر والمؤمن والعاصي، وكلٌّ يستحق جزاءه الموعود.

بعد أن أوجزنا مضمون الخبر القرآني الذي تضمنته الآية الكريمة، كيف يمكننا تلمس هذا التوالد الدلالي الذي أفاده أسلوب القصر " إِنَّمَا " بتشكله مع تركيب الآية القرآنية الكريمة اللغوي بأفعاله وأسمائه وروابطه:

إن اللّه سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يسوق الخبر في انسيابٍ وهدوءٍ وتعالٍ، تعالي الخالق، خالقِ الحياة والأحياء من عدم، المحيي بعد موت، المميت بعد حياة، الباعث بعد موت، المرجع إليه بعد بعث، المحاسب للمرء على ما عمل، إن

ISSN : 2410-1818

خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً، " وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا " [الكهف/ 49]، ولما كان القصر بـ "إنما" يفيد نفي الخبر بعد إثباته كما مر، فإن الخبر في الآية الكريمة قد تضمن معنيين:

1- الخبر المثبت:

ويتولد عنه الإخبار عن فئة تستجيب لدعوة الرسول صلّى الله عليه وسلم وهي فئة المؤمنين، وهذه الفئة التي تستجيب لدعوة الرسول فتؤمن، فئة تتصف بالحياة لأنها تسمع ما جاء به الرسول فتعي وتعقل فتؤمن، ما الذي تسمعه هذه الفئة فتعيه، وتعقله فتؤمن؟ وهذا التساؤل يقودنا إلى مهمة الرسول: وهي التبليغ، والتذكير، والإنذار، التذكير بالله الخالق: خالقِ الحياةِ والأحياءِ والجماد، خالقِ الإنسان الحي بسمعه وبصره وعقله وجميع حواسه ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات/ 21].

خالقِ الكونِ بسماواته ونجومه، وشمسه، وقمره، وأرضه، وبره، وبحره، وجبله، وسهله، خالقِ الحيوان والنبات، ودلائل الحياة في الكون ملحوظة، فالكون منظّم، يسير في نظام متسقٍ لا يتخلف، والإنسان الحي خلقُه منظَّم

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ [السجدة/ 7] فأي شيء أحسن من خلق الإنسان الحي العاقل المبصر السامع من طين؟ ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون/ 14]

ومهمة الرسول الدعوة إلى الله وتذكير الإنسان المخلوق العاقل بواجبه تجاه خالقه الذي أنعم عليه بهذه النعم كلها ابتداءً من نعمة الحياة التي يعيشها مروراً بنعمة الكون المسخَّرِ له وصولاً إلى العقل الذي وهبه الله له ليختار بعد التفكير في النفس والملكوت، في خَلْقه وخَلْقِ الكون من حوله إلخ، فالتفكر بالعقل في ذلك كله كما أُمِرَ كفيلٌ عقلاً ومنطقاً ان يعرف من خلاله واجبه تجاه خالقه، فيستجيب بالإيمان لله بعد سماعه.

والفعلان " يستجيب" و "يسمعون" فعلان مضارعان يدلان على الحدوث والتجدد، كما أن الفعلين لم يقيدا بمفعول محدد، إشارة إلى عدم محدودية الاستجابة بمعنى استمرار الإيمان بالله وتطبيق أوامره واجتناب نواهيه على الدوام، ما دامت الحياة وبالتالي ما دام الإنسان حياً فيها، كما أن الفعل " يسمعون" دال على تجدد السماع، والسماع طريق العلم [17]، وتجدد السماع من المؤمن والتفكر في ملكوت السموات والأرض، داعٍ إلى زيادة تثبيت هذه الاستجابة والمداومة عليها، وهكذا تعكس الحياة بالإيمان الحياة التي أرادها الله سبحانه وتعالى، وتقود بالتالي إلى الحياة الأخرى الأبدية، ثم إن التعبير بالفعل:

17) الثعالبي: تفسير الثعالبي الموسوم بجواهر الحسان في تفسير القرآن جـ1 ص517، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، دار الثقافة – الدوحة، ط1 1411هـ – 1991م، بيروت – لبنان.

ISSN : 2410-1818

"يستجيب" دون الفعل " يجيب" مثلاً إشارة إلى ما تدل عليه الاستجابة من إجابة مصحوبة بالقبول[18] فالاستجابة تعني الإجابة في طواعية، والانقياد المطلق لله المفضي إلى الإيمان بالله في صورة العبد المطيع المنقاد، أما الإجابة فلا تحمل هذا المعنى بل تفيد الإجابة قبولاً أو رفضاً، ولذلك فالاستجابة أفادت معنى الانقياد المطلق لله انطلاقاً من معنى العبودية له، فلو نظرنا إلى علاقة الإنسان بربه، كيف يجب أن تكون عليه علاقة الإنسان بربه، بخالقه المتفضل عليه؟ إنها علاقة انقياد تام، والانقياد التام مرتبط بالتقوى، والتقوى أعلى درجات العبودية، وإذا كانت التقوى تعني مراقبة الله في الأقوال والأفعال والسلوكيات الظاهرة والباطنة باتباع أوامره واجتناب نواهيه، فهي بذلك تقود إلى إعمار الكون، فتخلق مجتمعاً منظماً تسود فيه روح الفضيلة، والطمأنينة، فيكون هذا المجتمع حياً لأخذه بأسباب الحياة المتمثلة في الإيمان﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال/ 24].

وبذلك تقود الحياة الدنيا بالإيمان الأحياءَ " المؤمنين" إلى حياةٍ دائمةٍ متواصلةٍ سرمدية، وتتكامل للمؤمن صفة الحياة بإيمانه لأن إيمانه يحييه، فأعماله كلها فضيلة تدعو إلى الفضيلة: عقيدة صافية خالصة نقية، طهارة، نظافة، صلاة، صيام، زكاة، حج، صدق، وفاء، إخلاص، أمانة، تعاون، عدل، بعد عن الخنى وكل رذيلة، لا سرقة، ولا زنا، ولا شرب خمر، ولا قتل للنفس التي حرم الله إلا بالحق ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة/ 179].

ثم إن إسناد "الاستجابة" إلى الاسم الموصول " الَّذِينَ " في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾، أفاد معنى العهد، فيستجيب للإيمان من عهد منهم، أن يسمعوا، ولا يستجيب للإيمان من عهد منهم أن "لا يسمعوا" وهم الكفار، وشتان الأحياء والموتى، والمؤمنون والكفار، ثم إن التعبير بالاسم الموصول "الذين" واءم بين العموم الذي يفيده التعبير به والإطلاق المستفاد من صلته "يسمعون" بعدم التقييد بمفعول محدد، فتآزرا في التعبير عن العموم والإطلاق والحدوث والتجدد ليمتد فيشمل التعبير عن الإنسان عموماً في كل زمان، ومكان، فالسماع والتفكر في ملكوت السماوات والأرض متجدد، وفي تجدده تقوية للإيمان، وتثبيت له.

18) الهمذاني، المنتخب حسين بن أبي العز: الفريد في إعراب القرآن المجيد جـ2 ص144، تحقيق د فهمي النمر، فؤاد علي مخيمر، أبو السعود، محمد بن محمد العماد: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ3 ص130، دار ‘حياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

ISSN : 2410-1818

أما إذا خالف المرء المنطق والعقل فلم يستجب لدعوة الرسول، ولم يؤمن، فيتحول إلى الكفر، والكفر بعد عن الإيمان، وإذا كان في الإيمان حياة، ففي الكفر موت، والكافر ميت والكفار موتى، وهذا يقودنا إلى المعنى الثاني للخبر الذي تولد عن التعبير بأسلوب القصر "إنما" وهو:

2- الخبر المنفي:

ويتولد عنه الإخبار عن فئة لن تستجيب لدعوة الرسول صلّى الله عليه وسلم، وهي فئة الكفار التي لن تؤمن، وهي الفئة التي عرّض بها الله سبحانه وتعالى لأنها لم تؤمن، فقد ذكّرها الرسول صلّى الله عليه وسلم بخالقها، وبكونها، مخلوقةً بعقلها، وسمعها، وبصرها، وجميع حواسها، والكون كله مخلوق مسخر لها، ولما لم تستثمر عقلها الداعي بحكم المنطق والعقل إلى الإيمان، فهي كمن لم يسمع، ولم يعِ ولم يعقل، فلم يؤمن، ولما لم تستثمر حواسها وعقلها في الاختيار، فكفرت وعاندت، فكانت بمنزلة الذي لا يسمع، والذين لا يسمعون هم الموتى، ولذلك أخبر الله سبحانه وتعالى عن مصير الموتى إذ يبعثهم الله ويُرجعهم إليه فيجازيهم على ما عملوا " والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون".

وقُدِّم المفعول به "الموتى" للدلالة على اختصاص الله سبحانه وتعالى ببعثهم.

والموتى في الآية الكريمة تشير إلى صنفين هما:

أ- صنف يحدده سياق الآية الكريمة: وهم الموتى "الكفار" غير المستجيبين لربهم فلم يوظفوا حواسّهم في عبادة ربهم، وإعمار الحياة الدنيا وفق توجيهاته باتباع الأوامر واجتناب النواهي.

ب- الموتى الذين يقع عليهم الموت ويتوفاهم الله سبحانه وتعالى وهؤلاء يشمل الأحياء وغير الأحياء أي المستجيبين لأوامر ربهم والمجتنبين لنواهيه، والعصاة والكفار غير المستجيبين لأوامره وغير المنتهين عن نواهيه.

وهكذا فالآية الكريمة:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

تحكي في جزئها الأول: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ بمنطق وعقل منزلة الإنسان المخلوق التي يجب أن يكون عليها من حيث استجابته وسماعه لدعوة الرسول إلى الله بالإيمان باعتباره مخلوقاً، لكن الكفار إذ لم يستجيبوا لذلك فلم يؤمنوا استحقوا تعريض الله بهم وتبكيتهم لكفرهم وعنادهم.

كما تحكي الآية في جزئها الثاني بمنطق أيضاً مآل الإنسان بعد الموت باعتباره مخلوقاً إلى خالقه، الذي يبعثه ويرجعه إليه، ويتأسس على هذا الكلام منطقاً أن يكون الإنسان – ابتداءً – مطيعاً لله الذي يجب أن يطاع، فالمخلوق يجب أن يطيع الخالق.

ISSN : 2410-1818

الروابط:

أما الروابط فتتمثل في حروف العطف والجر والضمائر.

- العطف بالواو: أفاد الاستئناف لأنه انتقل إلى الحديث عن الحياة الآخرة التي يبعث الله فيها الموتى ويرجعهم إليه للحساب والجزاء.
- العطف بـ "ثم": أفاد معنى التراخي، بمعنى أنهم مهما عمروا سيرجعون إلى الله.
- الجر بـ "إلى": أفاد تقديم الجار والمجرور "إليه" على الفعل " يُرْجعون" في قوله تعالى:" ثم إليه يرجعون" اختصاص الإرجاع إلى الله لا إلى أحدٍ سواه.

الضمائر: توزعت الضمائر الرابطة في الآية الكريمة بين الغيبة والحضور، فضمائر الغيبة تحيل على الموتى الذين يتحولون من موت إلى حياة ومن حضور إلى غياب، وضمير الحضور يتمثل في ضمير "الهاء" الذي يحيل على لفظ الجلالة " الله" على الله الحاضر الذي لا يغيب.

1) ضمائر الغيبة وتتمثل في:

أ- ضمير الغائبين "هم" في قوله تعالى:" والموتى يبعثهم الله" فالضمير "هم" يحيل على "الموتى"، وهو يشير إلى الماضي الحضوري للموتى في الحياة الدنيا، وصفة الموت التي هم عليها تمثل صفة غياب لهم عن الدنيا، هذا الغياب الذي هو ضد الحضور، فهم حاضرون إذ خلقهم الله أحياء، وهم غائبون عن الحياة الدنيا بعد إماتة الله لهم، وهم حاضرون بعد بعث الله لهم.

ب- واو الجماعة الغائبين المتصل بالفعل "يُرجّعون" يحيل على الموتى، فالموتى يبعثون بعد الموت، ويرجعون بعد البعث، وهم أحياء قبل الموت، وهم بذلك ينتقلون من حضور الحياة، إلى غياب الموت، إلى حضور البعث إلى حضور الإرجاع إلى الله للحساب والجزاء.

وهكذا تَقِفُنا الآية ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ إزاء ثلاثة حضورات للإنسان:

1- حضور الحياة الدنيا الذي يعقبه غياب بالموت.

2- حضور البعث الذي يعقبه حضور الإرجاع للحساب.

3- حضور الإرجاع إلى الله الذي يعقب حضور البعث إن جاز لنا اعتباره حضوراً آخر بدلالة "ثم" على التراخي، أو أنه إشارة إلى الحضور الممتد الذي تمثله الآخرة.

ISSN : 2410-1818

والحضوران الأخيران: "حضور البعث" و"حضور الإرجاع إلى اللّه" للجزاء ربما يشيران إلى أبدية الحياة الآخرة وسرمديتها، وليس بالضرورة أن يشيرا إلى ذلك، لأن توقف الحضور بعد البعث والإرجاع إلى اللّه عن أن يعقبه موت دلالة على أبدية الحياة الآخرة وسرمديتها، كما أن الحضور الأول يشير إلى حضور الحياة الدنيا الزائل لما يعقبه من موت.

1) ضمير الحاضر "الهاء":

في "إليه" من قوله تعالى:" والموتى يبعثهم اللّه ثم إليه يرجعون" العائد على لفظ الجلالة "اللّه" وهو يشير إلى الحاضر لا إلى الماضي الحضوري، لأنه يشير إلى حضور اللّه السرمدي الذي لا يغيب، وهو حاضر في السياق أيضاً "اللّه".

وأخيراً: لننظر في حروف الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ لنلاحظ معاً عدد حروف الآية تتوسطها كلمة "والموتى" الدالة على الكفار في سياق الآية الكريمة معطوفةً بالواو مُعرَّفةً بـ "أل" مرة وكلمة "موتى" غير معطوفة بالواو مجردة من حرف التعريف "أل" لعلنا نلاحظ:

1- عدد حروف الآية المنطوقة قبل لفظة "والموتى" مُعرَّفةً "بأل" مسبوقة بحرف العطف "الواو" اثنين وعشرين حرفاً، وعدد حروف الآية المنطوقة بعد لفظة "والموتى" أربعة وعشرين حرفاً.

2- عدد حروف الآية المنطوقة قبل لفظة "موتى" غير مسبوقة بحرف العطف الواو، مجردة من حرف التعريف "أل" أربعةً وعشرين حرفاً متساويةً مع عدد حروف الآية المنطوقة بعد لفظة "موتى" خاليةً من حرف التعريف "أل"، غير مسبوقة بالواو، وكأن الحروف الأربعة والعشرين المنطوقة المعبر بها في صدر وعجز الآية الكريمة تتوسطها لفظة "موتى" نكرة، تحدد منزلة هؤلاء العصاة الكفار الحقيقية التي هي منزلة غير سوية فهم غير معبوء بهم لأنهم لا يؤمنون، وهي بهذا إنما تقفنا إزاء: إعجاز القرآن الكريم التعبيري الذي يرينا فيهم منزلتهم الحقيقية فهم:

أحياء	موتى
معارف	نكرات
عقلاء بما وهبهم اللّه من عقول ميزهم بها عن سائر الحيوانات.	غير عقلاء، لأنهم لم يستخدموا عقولهم الاستخدام الصحيح فيؤمنوا.
موصولون بالأحياء، باعتبار ما يجب أن يكونوا عليه من الإيمان إذا كانوا طائعين.	مقطوعون عن الأحياء باعتبار ما هم عليه من الكفر والعصيان.

ISSN : 2410-1818

وخلاصة ما يمكن قوله في الآية الكريمة ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُون ﴾

أنها خبر موجه من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله محمد صلّى الله عليه وسلم، ولما كان هناك: رسول مُرسَل فهناك:

مُرسِل هو "الله" ومُرسَل إليه ورسالة

ومع صدع الرسول بالرسالة وتبليغه

↓	
ينتج عن ذلك:	
مستجيب	وغير مستجيب
↓	↓
المؤمنون	الكافرون ⟵ والعصاة من المؤمنين على درجاتٍ فيما بينهم.
↓	↓
وصفوا بالحياة في الآية لإسناد الاستجابة إلى من يتصف بصفة من صفات الحياة، وهي السماع ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ فهم أي "المؤمنون":	وصفوا بالموت لنفي اتصافهم بصفة من صفات الحياة وهي السماع وبالتالي نفي صفة الحياة جملةً عنهم، وبالتالي فهم غير مستجيبين لدعوة الرسول صلّى الله عليه وسلم، وهذا معنى اتصافهم بالموت، استفيد من القصر بـ "إنما" الذي أفاده علاوة على ذلك التعريض بهؤلاء الكفار وتبكيتهم والاستهزاء بهم.
↓	↓
أحياء.	ثم حديث عن مآل الكفار وغيرهم من الناس الأحياء كلهم، المؤمنين والعصاة والكفار ببعثهم وإرجاعهم إلى الله للحساب.
	↓
	"والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون"

فالآية الكريمة في جزئها الأول حديث عن الحياة الدنيا وخلْق الله سبحانه وتعالى الحياة والأحياء وإرساله رسوله محمداً صلّى الله عليه وسلم لدعوة الناس إلى الإيمان بالله، فمنهم من يستجيب، ومنهم

ISSN : 2410-1818

من لا يستجيب وهم الكفار الذين عرّض الله بهم في الآية الكريمة، والفعلان "يستجيب" و"يسمعون" في صورة الإثبات بما أفاداه من معنى الحدوث والتجدد أفادا معنى الحياة الدنيا التي تقتضي إرادة الله إعمارها بالإيمان تنفيذاً لأوامره واجتناب نواهيه.

والفعلان السابقان "يستجيب" و"يسمعون" في صورة النفي المستفادة من القصر بـ "إنما" في الآية نفسها أفادا عدم تحقق إعمار الحياة بالكفر.

ثم تأتي الآية الكريمة في جزئها الثاني للحديث عن الحياة الآخرة التي يبعث الله فيها الموتى ويرجعهم إليه ليجازيهم على أعمالهم، والفعلان "يبعثهم" و"يرجعون" أفادا معنى الحدوث والتجدد الذي لا يسير بهم إلى موتٍ يوقفهم عنها إشارة إلى أبدية الحياة الآخرة.

فالتوالد الدلالي الذي أحالت عليه الآية الكريمة بما أحدثه فيها التعبير بـ "إنما" يفسر لنا ذهاب بعض المفسرين في حديثهم عن الآية الكريمة إلى أنها حديث[19] عن المؤمنين والكفار، كما ذهب بعض المفسرين إلى أن الموتى[20] في الآية تدل على الكفار، وعلى كل من مات.

والحقيقة أن الآية وإن كانت حديثاً عن الكفار كما يشير إلى ذلك السياق لما فيها من تقرير[21] لما مر فيما يسبقها من آيات من أن على قلوبهم أكنة مانعة من الفقه، وفي آذانهم وقراً حاجزاً من السماع، وتحقيق لكونهم بذلك من قبيل الموتى لا يتصور منهم الإيمان البتة، فإن التعبير بأسلوب القصر المتمثل في "إنما" أشاع هذا التوالد الدلالي المستفاد من الآية في كونها حديثاً عن المؤمنين، والكفار والعصاة من المؤمنين، وكلّهم بل كل كائن حي سيموت، فهم موتى سيموتون وسيبعثهم الله ثم يرجعهم إليه فيجازيهم على أعمالهم، والله أعلم.

19) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، ج2، ص117، تحقيق ودراسة عبدالرحمن عميرة، لجنة التحقيق والبحث العلمي، دار الوفاء، ط1، 1415هـ - 1994م.

20) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص269، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1413هـ - 1993م.

21) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج3، ص130، الشوكاني، فتح القدير، ج2، ص117.

ISSN : 2410-1818

2- المحور الثاني:

التوالد الدلالي في سورة "الشمس":

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا(15) ﴾الشمس: ١ - ١٥

سورة الشمس سورة مكية أقسم الله سبحانه وتعالى فيها بمظاهر هذا الكون المتعددة من شمس وقمر وما يعكسانه من نهار وليل، والمسرح الذي يظهر عليه أثر الشمس والقمر والنهار والليل، هذا المسرح المتمثل في السماء والأرض، والإنسان هو المنتفع بهذا الكون الذي خلقه الله سبحانه وتعالى لمنفعته.

والقسم من مباحث الإنشاء غير الطلبي لأنه إنشاء لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، وتكمن أهميته في كونه يلفت نظر المخاطب إلى عظمة المقسم به لأن الله سبحانه وتعالى لا يقسم إلا بعظيم ولا شك أن هذا الكون المقسم به في هذه السورة بكافة مظاهره من شمس وقمر ونهار وليل وسماء وأرض وإنسان، لا شك أنه خلق عظيم، وهذا الخلق العظيم الذي أراد الله سبحانه وتعالى لفت نظر المخاطب إليه يشير إلى عظمة الخالق سبحانه وتعالى لأنه لا يخلق هذا الخلق العظيم إلا خالق عظيم، ويستتبع هذا تعظيم الخالق سبحانه وتعالى وشكره على ما أنعم به من الخلق، فقد خلقنا في هذا الكون بعد أن خلق لنا هذا الكون البديع الصالح لأن نحيا فيه، إذ لا حياة لنا بدون هذا الكون الذي يمثل أساساً لحياتنا، والعقل والمنطق اللذان زودنا الله بهما يجعلانا ندرك عظمة هذا الخلق وبالتالي عظمة الخالق سبحانه وتعالى الذي يستوجب علينا عبادته وتوحيده

وقد وردت هذه الأقسام على النحو التالي:

1- الابتداء بواو القسم **﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾** فقد أقسم الله سبحانه وتعالى بالشمس ثم عطف عليها "ضحاها" لأنه جزء من النهار بل الجزء المهم من النهار الذي يذهب فيه الناس لطلب المعاش في كل الدنيا وهو جدير بالتأمل فيه، والواوات المخفوض بها الأسماء المعطوفة على **﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾** حروف عطف لا حروف قسم، يقول ابن هشام عن ذلك:" المخفوضات عطف على الشمس المخفوضة بواو القسم، وإن جعلتهن للقَسَمِ وقعت فيما اتفق عليه الخليل وسيبويه على استكراهه، يعني أنهما

ISSN : 2410-1818

استكرها ذلك لئلا يحتاج كل قَسَمٍ إلى جواب يخصه"[22]، وعلى ذلك فقد تلا القسم بالشمس عطف المظاهر الأخرى للكون، فقد عطف على الشمس القمر والنهار والليل والسماء والأرض والكائن الحي عموماً والإنسان خصوصاً، وهذا العطف لمظاهر الكون هذه على القسم بالشمس أشربها معنى القسم، لأن العطف بالواو يفيد التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في المعنى، فاشتركت المعطوفات مع المعطوف عليه في معنى القسم، كما أن العطف بالواو يفيد المغايرة فكل ظاهرة كونية مغايرة للأخرى لكنها تعمل معاً في انسجام تام في صنع الحياة على وجه الأرض.

التركيب اللغوي للأقسام المتعاطفة تميز بتقييد هذه الأقسام بجمل شرطية أداة الشرط فيها "إذا":" والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها" و"إذا" في هذه التراكيب السابقة خرجت عن الشرطية[23] وعن الاستقبال[24] لتدل على الحال، فهي ظرفية دالة على الحال، لأنها تعبر عن حركة الكون الحالية المستمرة منذ ابتدأت الخليقة إلى أن تنتهي، فالكون في حركة دائبة لا يفتر، والشمس والقمر والنهار والليل في دوران دائب في فلكهما لا يفتران، قال تعالى:﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾ [إبراهيم / 33]، يقول ابن هشام في دلالة "إذا" الظرفية على الحال في تراكيب مناظرة لهذه التراكيب:" أن تجيء -إذا- للحال، وذلك بعد القسم نحو ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى** ﴾ [الليل / 1]، ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى** ﴾ [النجم / 1] فهي ظرف... المراد به الحال" [25] وعلى هذا فقوله تعالى:﴿ **وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا** ﴾ معطوف على جملة القسم الأولى التي ابتدأت بها السورة ﴿ **وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا** ﴾ وهذان القسمان يشيران إلى الدورة اليومية للكون المتمثلة في تعاقب الليل والنهار، هذه الدورة اليومية التي يجب أن تسترعي انتباهنا إلى عظمة هذا الكون المسخر للإنسان والقدرة العظيمة التي تقف وراءه، ثم عقب ذلك بـ:

أ- القسم بالنهار ﴿ **وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا** ﴾ أي جلَّى الشمس فدخل بها النهار.

ب- القسم بالليل "والليل إذا يغشاها" الغشيان هو دخول الليل وذهاب النهار ويراد به الدلالة على الحركة، لأن الأفعال [**تلاها، جلاَّها، يغشاها**] من الأفعال الدالة على الحركة، وقد يتساءل متسائل

22 ابن هشام، الأنصاري: مغنى اللبيب ت د مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ومراجعة سعيد الأفغاني ص634، دار الفكر – بيروت – لبنان، ط5، 1979م.

23 السابق صـ128.

24 السابق.

25 السابق صـ130.

ISSN : 2410-1818

عن سبب القسم بالنهار والليل مع أنهما متضمنان في القسم بالشمس والقمر؛ لأن الشمس لا تكون إلا في النهار والقمر لا يكون إلا في الليل، وهل هو من قبيل التكرار؟ لا، ليس بتكرار، لأن:

أ- القسمين الأولين: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) ﴾ يشكلان جزءاً من النهار وليله المقمر في الدورة الشهرية الأولى.

ب- القسمين الثانيين:﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) ﴾ يشكلان الجزء الثاني من النهار وليله المظلم في الدورة الشهرية الثانية.

إذن أفعال الحركة التي قيدت بها الأقسام في سياقها الحالي كتلو القمر للشمس وتجلية النهار بطلوع الشمس وغشيان الليل، تجسد لنا حركة هذا الكون اليومية والشهرية والفصلية والسنوية، وأداة الشرط "إذا" التي قيدت بها هذه الأقسام تفيد التحقق، لأنها تعبر عن حركة الكون الحقيقية التي نشاهدها يومياً، وهكذا ينشأ عن هذه الدورة الكونية بمسمياتها الأربع التي قدمنا، ينشأ عنها إدراكنا للزمن الذي تنتظم به حياة الإنسان في معاشه وعباداته:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾البقرة: ١٨٩

، فالناس بهذه الأهلة يعرفون مواسم المزروعات ومواعيد العمل، ومواقيت العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج، ولذلك فلا غرابة أن تلحظ التشريع الإسلامي قد جعل أركان الإسلام الخمسة منسجمة مع دوران هذا الزمن، فالصلاة ابتداءً من الأذان المتضمن للشهادتين وهما أول ركن من أركان الإسلام، والصلاة في اليوم خمس مرات تتوزع اليوم خمسة أوقات:" إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً" وهي -أي الصلاة - أفعال وأقوال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، وهذه الأفعال بحركاتها تفقد هذه الحركة في صلاة الجنازة كأن الحركة أمارة على الحياة، والميت قد توقف عن الحياة فلا حركة في الصلاة عليه، كما أن الحكمة من ذلك على وجهها الحقيقي لا يعلمها إلا الله، والزكاة فريضة مرتبطة بالزمن من حيث إنها تخرج بعد تمام الحول إذا بلغت النصاب، والصوم كذلك عبادة مرتبطة بالزمن من حيث إنه فرض في شهر واحد من كل عام هو شهر رمضان "فمن شهد منكم الشهر فليصمه" وقال تعالى:" يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون" وفي ذلك من الحكمة ما لا يعلمه إلا الله، فقد ثبت طبياً أثر الصوم الناجع على صحة الإنسان الصائم، والحج فريضة مرتبطة بالزمن من حيث أداؤها في وقت معين من السنة، وهي واجبة على المستطيع مرة واحدة في العمر "ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً" وفي الحج والعمرة من الحركات التي يجب على المسلم أن يؤديها دون أن يسأل عن وجه الحكمة فيها، فالطواف والسعي وهما حركات يؤديها الحاج والمعتمر تشير إلى حكمة إلهية من دوران هذا الكون واشتمال هذه العبادات على هذه الحركات بما فيها من دوران يتناسب ودوران الزمن.

ISSN : 2410-1818

2- تخصيص الدلالة: اتصال "أل" التعريف كمحدد من محددات الدلالة بمظاهر الكون المختلفة المقسم بها، الشمس، القمر، النهار، الليل، السماء، الأرض يشير إلى وحدة الكون، فالسماء واحدة في كل مكان والأرض واحدة في كل مكان والشمس واحدة في كل مكان والقمر واحد في كل مكان وإن اختلفت المطالع فاختلف موعد النهار والليل من منطقة إلى أخرى ومن دولة إلى أخرى، وقصر النهار في دولة وطوله في أخرى وكذلك الليل يقصر في مناطق ويطول في أخرى، وهذا تجسيد حي لعظمة هذا الكون، فهذا الكون الواحد الذي يسير سيراً دائباً يستدعي انتباه الإنسان العاقل إلى السر وراء هذه الحركة الدائبة التي تصب في خدمة الإنسان في معاشه وحياته.

3- تعميم الدلالة: تنكير "نفس" المقسم بها في قوله تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ الشمس: ٧ فالنكرة تفيد العموم، وهذا العموم يشمل الكائن الحي عموماً والإنسان خصوصاً بدلالة الآية الآتية بعدها ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ الشمس: ٨

فهذه تشير إلى النفس الإنسانية الملهمة التي تتفكر بل يجب أن تتفكر في هذا الخلق للكون كله والكائنات الحية بما فيها الإنسان الذي خصه الله بنعمة العقل والتفكير، فهل وجد هذا الكون بنظامه المتقن وما عليه من كائنات حية وعلى رأسها الإنسان عبثاً؟ كما تتسع هذه النكرة بدلالتها على العموم لاستحضار الكائنات الحية وكذا الإنسان بخلقها البديع المتقن الذي لا يستطيعه الإنسان بالرغم مما وصل إليه من التقدم فهو لا يستطيع أن يخلق ذبابة أو أدنى من ذلك، فالإنسان الذي دلت عليه كلمة "نفس" يتسع ليشمل جميع المراحل العمرية "الطفولة والصبا والشباب والشيخوخة" والإنسان العربي والأعجمي والأسود والأبيض والأحمر والأمريكي والأوروبي والأفريقي والأسيوي والاسترالي... إلخ وفي كل ذلك آية تدل على الخالق العظيم، كما أن الدلالة تتسع لتشمل الإنسان المعصوم وغير المعصوم من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويدخل في الإنسان المعصوم كل الأنبياء من آدم فمن جاء بعده مروراً بالنبي صالح فمن جاء بعده وانتهاءً بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، وهكذا فالله سبحانه وتعالى قد أقسم في هذه السورة بالكون بكافة مظاهره والإنسان وكل الكائنات الحية لأنها خلق عظيم لا يستطيعه إلا الخالق العظيم الذي يستحق بل يستوجب منا العمل بما يقتضيه واجب العبودية له سبحانه وتعالى.

4- التركيب اللغوي للأقسام الثلاثة الأخيرة: "والسماء وما بناها" "والأرض وما طحاها" "ونفس وما سواها" فـ -ما- في التراكيب الثلاثة السابقة مصدرية أو موصولة "والزمخشري يعتقد أن جعل "ما" مصدرية في التراكيب السابقة، ليس بالوجه لقوله بعد: "فألهمها" وما يؤدي إليه فساد النظم، ويرى أن الوجه أن تكون موصولة، وأن "ما" أوثرت على "من" في ذلك لإرادة معنى الوصفية، كأنه قيل:

ISSN : 2410-1818

والسماء والقادر العظيم الذي بناها، ونفسٍ والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها"[26] وقال الزركشي في قوله تعالى:" والسماء وما بناها" وأما آية السماء فلأن القسم تعظيم للمقسم به من حيث ما في خلقها من العظمة والآيات، فثبت لهذا المقسم به التعظيم كائناً ما كان وفيه إيحاء إلى قدرته تعالى على إيجاد هذا الأمر العظيم، بخلاف قوله "من" لأنه كان يكون المعنى مقصوراً على ذاته دون أفعاله ومن هذا يظهر غلط من جعلها بتأويل المصدر"[27]، فالتعبير بالاسم الموصول "ما" مع صلته في هذه الأقسام الثلاثة يشير إلى عظمة البناء للسماء الذي يدل على عظمة الباني وهو الله سبحانه وتعالى، كما يشير إلى عظمة طحو الأرض وتسويتها الذي يدل على عظمة الطاحي وهو الله سبحانه وتعالى، كما يشير إلى عظمة تسوية خلق الإنسان خصوصاً والكائن الحي عموماً والذي يدل على عظمة المسوي وهو الله سبحانه وتعالى، فالإنسان بسمعه وبصره وقلبه وعقله خلق عظيم لا يستطيعه أحد غير الخالق العظيم، وقد أفادت "ما" الموصولة الدلالة على عظمة الخلق عموماً من بناءٍ للسماء وطحوٍ للأرض وتسوية للنفس لأنها تدل على الإبهام بل هي أشد الأسماء الدالة على الإبهام إبهاماً، نقل الزركشي عن السهيلي أن –ما– اسم مبهم في غاية الإبهام حتى إنه يقع على المعدوم نحو: إن الله عالم بما كان وبما لم يكن" [28] وهذا الإبهام يتسع دلالياً للدلالة على هذه العظمة التي لا تساويها عظمة، فالسماء بكواكبها ونجومها وامتدادها لتشمل كل الدنيا وارتفاعها بغير عمد، والأرض بسهولها ووديانها وبحارها وأنهارها وجبالها لتشمل كل الدنيا وامتدادها كذلك ليشمل كل الدنيا، والنفس الإنسانية والحيوانية بمختلف أنواعها وأشكالها وألوانها، أبعد هذه العظمة في الخلق عظمة؟ " تبارك الله أحسن الخالقين".

5- ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ الشمس: ٨ : الفعل "ألهمها" في الآية معطوف بالفاء على الفعل "سواها" في قوله تعالى: "ونفسٍ وما سواها"، والعطف بالفاء يفيد الترتيب والتعقيب، فالعقل ملازم للنفس الإنسانية منذ خلقت، إذ به يميز الإنسان بين الخير والشر والحلال والحرام والتقوى والفجور.

6- جواب القسم في قوله تعالى﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ الشمس: ٩ : والضمير "ها" في الفعلين "زكاها" و"دساها" عائد على نفس المقسم بها "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها" وجواب القسم هذا في قوله تعالى:" قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها" وإن كان قد اشتمل على الضمير "ها" العائد على نفس المقسم بها إلا أنه جواب للأقسام السابقة كلها: الشمس، والقمر، والليل، والنهار،

---

26) الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف جـ4 صـ258، دار الفكر للطباعة والنشر.

27) الزركشي: البرهان في علوم القرآن جـ4 صـ400، مكتبة دار التراث – القاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

28) السابق صـ398.

ISSN : 2410-1818

والسماء، والأرض، ونفسٍ أيضاً لأن الإنسان هو مركز الاتعاظ بهذه الأقسام لفضيلة الاختيار التي جبله الله عليها بما أنعم عليه من عقل وفكر يدرك بهما نعم الله عليه، ثم إن الكون كله بمظاهره المتعددة خلق لمنفعة الإنسان كي يحيا في هذا الكون حياة كريمة، وهذه الآية" قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها" تفيد بصفتها التحقيقية التقريرية التي صدرت فيه بحرف التحقيق[29] "قد" تشير إلى الحساب والجزاء اللذين هما لازم من لوازم العقل، والطبيعة الاختيارية للإنسان، القائمة على التكليف بما جاء به الرسل من شرائع كي تنظم مجتمعاتهم على الخير والفضيلة والعدل والأمانة والسلام والأخلاق الكريمة، فالآية تشير إلى الجزاء؛ جزاء الفلاح لمن سلك طريق التقوى وجزاء الخيبة لمن سلك طريق الفجور.

7- عرض نموذج من نماذج الخيبة القائمة على تكذيب الرسل: وهذا النموذج الذي اختتمت به السورة هو تكذيب قوم ثمود لنبيهم صالح وطغيانهم وتكذيبهم بالآية التي جاء بها ممثلة في الناقة التي حذرهم من أن يمسوها بسوء، وعقرهم لها وإهلاك الله لهم بالصيحة، واختتمت السورة بنموذج الخيبة دون نموذج الفلاح لأنه أدعى إلى الاتعاظ وأخذ العبرة ممن سبق

"كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها"

تشير الآيات إلى الحديث عن تكذيب قوم ثمود بسبب طغيانهم، وكذا تشير باجتزائها الحديث عن قوم صالح إلى إنزال الله الرسل من يوم أن خلق آدم مروراً بغيره من الأنبياء إلى نبي الله صالح المرسل إلى قوم ثمود إلى من جاء بعده إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، وكل هذه الرسالات جاءت لتوحيد الخالق سبحانه وتعالى فكذَّب من كذَّب وعوقب من عوقب ومنهم قوم صالح الذين أخذهم الله بالصيحة فالله قادر على كل شيء، ولنا في الأمم السالفة عظة وعبرة، فخالق هذا الكون بشمسه وقمره ونهاره وليله وسمائه وأرضه وإنسانه وكل كائن حي فيه واحد، وكل ذلك يدعو إلى توحيد الخالق سبحانه وتعالى إذا ما فكرنا بعقولنا التي وهبناها الله سبحانه وتعالى "تبارك الله أحسن الخالقين".

القعل "كذّب" في قوله تعالى:" كذّبت ثمود بطغواها" يدل على التكثير لأن الفعل المضعف العين يدل على تكثير الفعل مثل "قطّع" إذا كثر القطع، أما الفعل غير المضعف مثل "قَطَعَ" يدل على المرة الواحدة، ذكر ابن جني دلالة "فَعَّلَ" بتضعيف العين على التكثير في باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني، فقال:" وأما "فَعَّلَ" فللتكثير نحو: غَلَّقَ الأبواب، وقَطَّعَ الحبال، وكَسَّرَ

29) ابن هشام، الأنصاري: معنى اللبيب صـ231.

ISSN : 2410-1818

الجرار" [30]، وقال رضي الدين الاستراباذي في شرح الشافية:" وفعَّل للتكثير غالباً، نحو غلَّقت، وقطَّعت، وجوَّلت، وطوَّفت، وموَّت المال"[31]

وهكذا دل الفعل "كذَّب" في الآية على تكثير التكذيب من قوم ثمود لنبيهم صالح فعاقبهم الله بعد عقرهم للناقة التي هي آية الله التي حذرهم نبيهم صالح من أن يمسوها بأذى فعاجلهم الله بالعقاب بالصيحة.

- الباء في قوله تعالى:" بطغواها" تدل على السببية[32] أي بسبب طغيانهم وتكبرهم وعدم امتثالهم لما دعاهم إليه نبيهم صالح عليه السلام.
- والباء كذلك في قوله تعالى:" بذنبهم" أي بسبب[33] ذنبهم، فالباء تدل على السببية.
- التحذير[34] في قوله تعالى على لسان نبيهم صالح﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴾ الشمس: ١٣ أي احذروا ناقة الله واحذروا سقياها.

الفاء في قوله تعالى :

﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾ الشمس: ١١ - ١٥

الفاء تدل على الترتيب والتعقيب الذي يفيد تسارع الأفعال فبسبب تكذيب قوم ثمود لنبيهم صالح بسبب طغيانهم، حذرهم نبيهم صالح من أن يمسوا ناقة الله وسقياها بسوء فسارعوا إلى تكذيبه وعقر الناقة فعاجلهم الله بالصيحة.

"فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها" والفعل "دمدم" على وزن "فعلل" فعل رباعي مضعف يفيد الاضطراب كزلزل وقلقل وهو مناسب للتعبير عن الصيحة التي كان فيها هلاكهم وتسويتهم بالأرض

30) ابن جني: الخصائص جـ1 صـ223.

31) الاستراباذي، رضي الدين: شرح شافية ابن الحاجب جـ2 صـ92، ت محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1402هـ - 1982م.

32) الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف، جـ4 ص259.

33) السابق جـ4 ص260.

34) السابق.

ISSN : 2410-1818

ثم إن الله القادر على كل شيء بعقوبته لهم وإهلاكه لهم لا يخاف شيئاً يعقب عقابه لهم لأنه خالق كل شيء والمتصرف في كل شيء بيده الأمر والنهي يقول للشيء كن فيكون.

والإنسان بعمره طال أو قصر، وفي مراحله العمرية المختلفة يدور مع هذا الزمن تبعاً لدوران هذا الكون إلى أن تتوقف حياته، وكذلك الناس والأمم يدورون مع هذا الزمن منذ ابتدأت الخليقة إلى أن تنتهي، وكل أمة تتلوها أمة، وهكذا تتوالى وتتلاحق الأجيال إلى أن تنتهي الحياة تماماً، والسورة باجتزائها لقوم ثمود تشير لنا إلى الأمم السابقة التي سبقت ثمود والأمم اللاحقة التي لحقتها، وهلاك الأمم يشير إلى مسيرة الإنسان في هذه الحياة، فهو يسير إلى نهاية محتومة اقتضتها حكمة الله سبحانه وتعالى، وهذا الكون المنتظم أيضاً يسير إلى نهاية شأنه شأن الإنسان والحيوان والنبات، لأن حكمة الله اقتضت ذلك، وإذن فالكون يسير إلى نهاية أكيدة، والدليل على ذلك تلاحق هذه الأجيال وتتابعها ووقوع الفناء عليها، وهو استدلال بالمنظور من حال الإنسان والحيوان والنبات على غير المنظور ممثلاً في هذا الكون المنتظم العائل إلى فناء ودمار وخراب للعالم، والجزاء العاجل لقوم ثمود والأقوام الأخرى التي أهلكها الله أمارة على الجزاء الآجل المتمثل في يوم القيامة من باب الاستدلال بالمنظور المسموع به من أخبار الأمم السابقة على غير المنظور المتمثل في الجزاء الأخروي الآجل، وهكذا فعالم الشهود العالم المنظور يشير إلى عالم الغيب العالم غير المنظور كما هو واضح في المخطط التالي:

- عالم الشهود⟵عالم الغيب
- العالم المنظور⟵العالم غير المنظور
- وحدة الكون⟵وحدة الخالق
- فناء الكائن الحي⟵فناء الكون
- الجزاء العاجل للأمم السابقة⟵الجزاء الأخروي الآجل "الجنة أو النار"

وبذلك تكون سورة "الشمس" بما لفتت إليه نظر المخاطب إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى من خلال خلقه العظيم المتمثل في الكون بجميع مظاهره من شمس وقمر ونهار وليل وسماء وأرض وإنسان وحيوان ونبات، وأن هذا الكون يسير إلى نهايته المحتومة التي اقتضتها حكمة الله سبحانه وتعالى، وفي هذا تقرير لحقيقة البعث والقيامة والحساب والجزاء، فلم يُخلَق هذا الكون عبثاً وكذا الإنسان ولكن لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى، والجزاء إمَّا أن يكون إلى الجنة وإمَّا أن يكون إلى النار أعاذنا الله وإياكم منها.

ISSN : 2410-1818

3- المحور الثالث:

التوالد الدلالي في سورة "الضحى":

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(11) ﴾الضحى: ١ - ١١

سورة الضحى سورة مكية، نزلت مواساة للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أبطأ عليه الوحي بعض الوقت، فقال له الكفار: ودعه ربه وقلاه، فجاءت هذه السورة إيذاناً بتجدد نزول الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فبدأت بالقسم:

1- القسم بالنهار والليل في قوله تعالى﴿ وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) ﴾ قسمٌ بظاهرة كونية تتعاقب يومياً، فالنهار يمثل حركة الحياة والأحياء وأشد ما تكون حركة الحياة والأحياء في وقت الضحى، والليل يمثل السكون سكون الحياة والأحياء ولذلك أقسم الله بهما ليكونا مقام النظر والاعتبار، فهما آية كونية مشاهدة يلفت القرآن الكريم بهذا القسم إلى النظر فيهما، لما في ذلك من الدلالة على عظمة خلق الله سبحانه وتعالى، فكما أن هذه الظاهرة الكونية "النهار والليل" تتتابع يومياً منذ ابتدأت الخليقة إلى أن تنتهي، فكذلك سيتتابع نزول الوحي إلى أن تكتمل الشريعة، وهذا ما حدث بالفعل إذ تتابع نزول الوحي بعد نزول هذه السورة إلى أن اكتملت الشريعة قال تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾المائدة: ٣

وارتفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلَّغ رسالة ربه، وفي القسم بهذه الظاهرة الكونية إقناع للمتلقي في ذلك العصر وفي كل عصر بعظمة الخالق سبحانه وتعالى وعظمة الوحي الذي جاء من عنده، فقد أقام هذا الوحي أمة دانت لها الأرض، كما أن في القسم بهما "الليل والنهار" إقناعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وللمتلقي عامة في أن الرسالة ستمضي وأن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ستستمر وأن تقولات المشركين وادعاءاتهم في انقطاع الوحي زائفة ولا أثر لها.

2- جواب القسم: تضمن الرد على فرية المشركين وادعاءاتهم في توديع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم والإخبار بالوعود بالعطاءات الربانية المستقبلية المتعددة في الدنيا والآخرة، قال تعالى:" ما ودعك

ISSN : 2410-1818

ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى" ففي هذه الآيات الثلاث إثبات للتواصل الإلهي معه صلى الله عليه وسلم، قال الزمخشري [35]:" لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى أن الله مواصلك بالوحي إليك وأنك حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه، أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله وشهادة أمته على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنية"، كما أن العطاء -الإلهي له - كائن لا محالة، وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة، عدد عليه نعمه وأياديه وأنه لم يخله منها من أول تربيه وابتداء نشئه ترشيحاً لما أراد به ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة ولا يضيق صدره ولا يقل صبره"[36].

وقد تضمن جواب القسم هذا مجموعة من الظواهر اللغوية:

2-أ مجموعة من الثنائيات:

2-أ-1- ثنائية النفي والإثبات: ثنائية النفي ممثلة في قوله تعلى:" ما ودعك ربك وما قلى"، وثنائية الإثبات ممثلة في قوله تعالى:" وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى" هذه الثنائية بقسميها: النفي والإثبات، تمثل جواب القسم الذي ركز على دحض ادعاءات الكفار في توديع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في صورة النفي "ما ودعك ربك وما قلى" ثم الانتقال إلى الإثبات للحديث عن الوعود الإلهية المستقبلية بعطاءات كثيرة في الدنيا والآخرة في صورة الإثبات "وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى" وبذلك تتولد عن ثنائية النفي والإثبات ثنائيات أخرى هي:

2-أ-2- ثنائية الماضي والمستقبل: الماضي الذي انصب عليه النفي "ما ودعك ربك وما قلى" فلا توديع ولا قلى من الله لرسوله في الماضي، والمستقبل الذي ورد في صورة الإخبار بما سيكون عليه حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآخرة من الخيرية ووعود بعطاءات إلهية مستقبلية، مرضية له، وكفى بهذا العطاء المرضي لصاحبه عطاء، وفي كل ذلك إثبات للتواصل الإلهي معه صلى الله عليه وسلم.

2-أ-3- ثنائية الذكر والحذف في قوله تعالى:" ما ودعك ربك وما قلى": حيث ذكر المفعول به "الكاف" متصلاً بالفعل "ودع" "ما ودعك ربك..." وحذف المفعول به "الكاف" من الفعل "قلى" في قوله "... وما قلى"، فهل من دلالة لهذا الحذف، إنها الدلالة على الإطلاق والعموم أي: ما قلاك ولا قلى أحداً من أتباعك،

35) السابق جـ4 ص264.

36) السابق.

ISSN : 2410-1818

لأن في قلى الرسول - معاذ الله - قلىً لأتباعه، كما أن هناك دلالة أخرى أشارت إليها بنت الشاطئ (37) تقول:" ونرى - والله أعلم - أن حذف الكاف من "وما قلى" مع دلالة السياق عليها، تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللطف، هي تحاشي خطابه تعالى رسوله المصطفى في موقف الإيناس، بصريح القول "وما قلاك" لما في القلى من حس الطرد والإبعاد وشدة البغض، وأما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة إلى اللقاء".

2-أ-4- ثنائية الأخرة والأولى في قوله تعالى: "وللآخرة خير لك من الأولى": فلفظ "الآخرة" يمتد ليشمل نزول الوحي بعد فترة الإبطاء وظهور أمر الشريعة بذلك وامتداد الفتوحات الإسلامية إضافة إلى ما تعنيه من معنى الآخرة المقابل للحياة الدنيا كالفوز بجنة عرضها السماوات والأرض، ولفظ "الأولى" يشير إلى ما قبل فترة الإبطاء إبطاء نزول الوحي إضافة إلى ما تعنيه من معنى الأولى المرادف للحياة الدنيا، فلفظ الآخرة مع الأولى ينفتحان دلالياً للتعبير عن عطاءات الله له في الدنيا والآخرة.

2-أ-5- ثنائية الاسمية والفعلية في قوله تعالى:" وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى": فقد جاءت الوعود الإلهية المستقبلية في جملتين: الأولى اسمية " وللآخرة خير لك من الأولى" تفيد الثبوت والدوام والاستمرار، الثانية: فعلية "ولسوف يعطيك ربك فترضى" لتفيد الحدوث والتجدد، فعطاءات الله له مستمرة دائمة وحادثة متجددة.

2-ب- التقديم: وتقديم النفي في قوله تعالى:" ما ودعك ربك وما قلى" على الإثبات "وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى"يقتضيه المقام الذي نزلت من أجله السورة للرد على افتراءات الكفار وادعاءاتهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم، وهذا الخطاب المنفي الموجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاب في غاية التعطف والتلطف له صلى الله عليه وسلم، فقد أضافه الله سبحانه وتعالى إلى نفسه "..... ربك....." وهي إضافة تفيد غاية التشريف، وأحاطه بضميري خطاب آخرين: الكاف المذكورة في "ما ودعك ربك..." والكاف المحذوفة في ".... وما قلى" فخصه بثلاثة ضمائر خطاب في آية واحدة، وهذه الآية واردة في سياق هادئ لا انفعال فيه مشبع بثقة الله الواحد الأحد في دحض تقولات المشركين وادعاءاتهم والمضي بعد ذلك في إقناع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعطاءات الربانية المتعاظمة في الدنيا والآخرة.

2-ج- التأكيد في قوله تعالى:" وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى" فهذا الخطاب المؤكد بلامي الابتداء وسوف يعكس التأثير الوجداني على رسول الله صلى الله عليه وسلم خصوصاً

37) بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني للقرآن ص269 دار المعارف – القاهرة ط 2، 1984م.

ISSN : 2410-1818

باعتباره من نزل عليه الوحي، وعلى المتلقي عموماً إذ يشعر القارئ المتدبر المتذوق في أي عصر كان بتأثير هذا الخطاب من طريقة نظمه التي اتى عليها، والغرض من هذا الخطاب طمأنة وإقناع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمضمون الخطاب المتمثل في الوعود الإلهية المستقبلية بعطاءات متعددة له في الدنيا والآخرة لمنزلة الرسول العظيمة عند ربه، بل هي وعود متحققة لأنها أخبار قرآنية مقطوع بصدقها، ولما ورد في سببي نزول الآيتين من عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما سيفتح على أمته بعده وسرور الرسول بذلك، فقد أخرج الطبراني[38] في الأوسط عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" عرض عليَّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي فسرني فأنزل الله "وللآخرة خير لك من الأولى" بإسناد حسن، وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل والطبراني وغيرهم عن ابن عباس [39] قال: عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو مفتوح لأمته كَفْراً كَفْراً وقريةً قريةً فسر به فأنزل الله "ولسوف يعطيك ربك فترضى"، فهذه الوعود الإلهية متحققة بالنظر والمشاهدة.

2-د- التفضيل: التفضيل بأفعل التفضيل "خير" [40] في قوله تعالى "وللآخرة خير لك من الأولى" يشير إلى ترقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في سلم الخيرية دون غيره، فهو يترقى من حسن إلى أحسن، قال بعض أهل الإشارات "في الآية إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم دائماً يترقى في الكمالات إلى غير نهاية فمقامه في المستقبل أعلى منه في الماضي وهكذا، ويدل لذلك أيضاً في قوله في الحديث " إني ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة" فاستغفاره لكونه ارتقى مقاماً أعلى من الأول، فرأى أن الذي انتقل منه بالنسبة للذي انتقل إليه ذنباً" [41].

2-هـ- الحذف: الحذف في قوله تعالى:" ولسوف يعطيك ربك فترضى" فقد حذف مفعول يعطيك الثاني تهويلاً لأمره، واستعظاماً لشأنه، وإن هذه المعطيات أجل من أن تذكر، وأكبر من أن تدرج، أي الشيء الكثير من توارد الوحي عليك بما فيه إرشاد لك ولقومك، ومن ظهور دينك، وعلو كلمتك، وإسناد قومك بما تشرع لهم، وإعلائك وإعلائهم على الأمم في الدنيا والآخرة" [42].

---

38) السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول ح حاشية الصاوي جـ4 ص437.

39) السابق.

40) الأصل أخير ثم خفف لكثرة الاستعمال، النحاس: إعراب القرآن ص154، وهذا الأصل يمثل بقايا تاريخية لاستعمال قديم. عبد اللطيف، محمد حماسة: لغة الشعر دراسة في الضرورة الشعرية ص 128.

41) الصاوي: حاشية الصاوي جـ 4 ص 437

42) درويش، محي الدين: إعراب القرآن وبيانه المجلد الأخير ص346.

ISSN : 2410-1818

2-**و- تعميم الدلالة:** في قوله تعالى:" ولسوف يعطيك ربك فترضى" قيدها بعض المفسرين بالآخرة "والمناسب أن تبقى على عمومها لأن إعطاءه حتى يرضى ليس قاصراً على الآخرة، بل عام في الدنيا والآخرة"[43] ولما ورد في سبب نزول هذه الآية الذي ذكرناه سابقاً بخصوص ما عرض له من فتوح، فالآية تمثل وعداً شاملاً "لما أعطاه له من كمال النفس وظهور الأمر وإعلاء الدين، ولما ادخره له مما لا يعلم كنهه" وقيل: عطاؤه هو الشفاعة، وقيل: يعطيك ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابها المسك، وفيها ما يليق بها، والحق التعميم بما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى" [44]

3- **الاستفهام التقريري** في قوله تعالى:" ألم يجدك يتيماً فآوى" وإشراب معنى التقرير للجمل الخبرية المعطوفة على الاستفهام التقريري "ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى" فقد تضمنت الآيات الثلاث تقرير رسول الله صلى الله عليه وسلم بعطاءات متحققة في الماضي فقد آواه الله بعد يتم بأن سخر له من يؤويه إذ كفله جده عبد المطلب ومن بعد جده عمه أبو طالب، وهداه الله بعد أن وجد في قوم أهل ضلالة، ومعنى الضلال الخلو من الشريعة قال الصاوي:" أي وجدك خالياً من الشريعة فهداك بإنزالها إليك، والمراد بضلاله كونه من غير شريعة، وليس المراد به الانحراف عن الحق، لكونه مستحيلاً عليه قبل النبوة وبعدها" [45]، وأغناه الله بعد عيلة، والآيات الثلاث "كلام مستأنف مسوق لتعداد أياديه ونعمه، والغرض من تعدادها: تقوية قلبه صلى الله عليه وسلم، وتشجيعه على السير في طريقه التي اختارها الله، وهي طريقة محمودة العواقب سليمة المغاب". [46]

وفي هذه العطاءات الماضية المتحققة التي تحدثت عنها الآيات الثلاث التي قرره الله بها تصديق أو تدليل على تحقق العطاءات المستقبلية المتقدمة الموعود بها في قوله تعالى:" وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى"، ولو جاءت الآيات الثلاث على الاستفهام التقريري لكان في التعبير نوع من الرتابة بحيث يصبح النظم رتيباً في غير القرآن " ألم يجدك يتيماً فآوى، وألم يجدك ضالاً فهدى، وألم يجدك عائلاً فأغنى" ففي الاستفهام التقريري:" ألم يجدك يتيماً فآوى" توجه الخطاب الإلهي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لحمله على الإقرار بكونه وجد يتيماً فهيأ الله له من يؤويه في صورة الاستفهام التقريري، وفي العطف على هذا الاستفهام للجمل الخبرية المراد تقريره بها أيضاً إشراب لهذه الجمل معنى التقرير لأن العطف يفيد مشاركة المعطوف للمعطوف عليه في المعنى، وفي هذا التنويع في

43) الصاوي: حاشية الصاوي على تفسير الجلالين جـ4 ص437.

44) السابق.

45) السابق جـ 4 ص438.

46) درويش، محي الدين: إعراب القرآن وبيانه المجلد الأخير ص343.

ISSN : 2410-1818

التعبير بالاستفهام التقريري ثم عطف الخبر عليه خروج عن الرتابة فيما لو عمم الاستفهام التقريري على الآيات الثلاث.

وفي العطف بالجمل الخبرية على الاستفهام ترشيح إلى أن معنى الاستفهام التقرير بالخبر المراد تقريره به من حيث إن نفي الفعل المضارع "يجدك" بحرف النفي "لم" يحيل معنى الفعل المضارع إلى معنى الفعل الماضي، يقول ابن هشام:" ولهذا عطف ووضعنا على "ألم نشرح لك صدرك" لما كان معناه: شرحنا، ومثله:" ألم يجدك يتيماً فآوى"[47] " ووجدك ضالاً فهدى...."

عطف ووجدك على "ألم يجدك يتيماً فآوى" لما كان معناه: وجدك يتيماً فآوى" فيترشح على ذلك أن معنى: ألم يجدك يتيماً فآوى = وجدك يتيماً فآوى، لكن لو عبر بهذا المعنى على الخبر دون الاستفهام لما وجدنا له مساغاً لضياع معنى التقرير بالخبر، لأن النظم سيصبح في غير القرآن: وجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى، ففي التعبير بالاستفهام التقريري حمل المخاطب على الإقرار بالخبر وليس ذلك موجوداً في الخبر، ولذلك عبر بالاستفهام التقريري أولاً ثم عطف عليه الجمل الخبرية المراد تقريره بها أيضاً ليأتلف المعنى، وهذا ملمح من ملامح الإعجاز القرآني، وتظهر في الآيات الثلاث ثنائية الذكر والحذف، فقد ذكر المفعول به "الكاف" في الأفعال:" يجدك، ووجدك... ووجدك" وحذف المفعول به "الكاف" من الأفعال:" فآوى... فهدى... فأغنى"، فالعدول عن ذكر المفعول به في هذه الأفعال إلى الحذف، أريد به "العموم، أي آواك وآوى بك، فآواك من يتم، وجعلك مأوى لليتامى، وهداك إلى دين الحق بعد أن كنت في حيرة من أمرك، وجعلك هداية للآخرين، وأغناك من فاقة وعوز وحاجة وأغنى بك، ولو أتى السياق على نمط واحد فذكر المفعول به فقال "فآواك" و"فأغناك" و"فهداك" لأوهم المعنى أن ذلك كان خاصاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتعد أثره إلى غيره، فأفاد العدول عن ذكر المفعول إلى حذفه في هذا السياق توسيع الدلالة بالإطلاق والعموم" [48]

والمستفاد من السياق أن مرجع الضمير المستتر "هو" في الأفعال الستة في الآيات الثلاث: "ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى" هو "ربك" في الآية السابقة: " ولسوف يعطيك ربك فترضى"، فالضمير المستتر "هو" في الأفعال الستة هو ضمير الحاضر العائد على الله سبحانه وتعالى لأنه الحاضر الذي لا يغيب، وهو حاضر في السياق أيضاً، وما دام الله هو المؤوي، وهو الهادي، وهو المغني فكفى بإيوائه إيواء، وكفى بهدايته هداية، وكفى بإغنائه إغناء.

47) ابن هشام، الأنصاري: مغني اللبيب ص25.

48) الهتاري، عبد الله: الإعجاز البياني في العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم ص ص 241 – 242.

ISSN : 2410-1818

4- التوكيد بأسلوب الشرط التفصيلي "أمَّا" [49]:

انتهت السورة باستعمال أداة الشرط التفصيلية "أمَّا" الدالة على التوكيد في الآيات الثلاث الأخيرة "فأمَّا اليتيم فلا تقهر، وأمَّا السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث"، ففي هذا التوكيد اقناع للعقل بالتزام الأمور التكليفية المتضمنة في الشرط، واجتزأت السورة نوعين من الضعف الإنساني هما: اليتيم والسائل " فأمَّا اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر" وفي اختيارهما مناسبة ليتمه الذي نشأ فيه وحالة الحاجة التي عاشها وأغناه الله بتسخير من يؤويه ومن يقوم بحوائجه، كما أن فيها إشارة إلى أن الرسالة المحمدية جاءت نصرة لليتيم والسائل، وكل مظاهر الضعف الإنساني، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما تنصرون بضعفائكم".

والخطاب التكليفي في هذه الآيات الثلاث الأخيرة خطاب جازم يدل على الإلزام بالأمور التكليفية المتضمنة في الشرط المتمثلة في النهي نهي تحريم عن قهر اليتيم بل "أقل قهر لليتيم منهي عنه"[50] وكذلك النهي نهي تحريم عن نهر السائل، بل أقل نهر للسائل منهي عنه، وكذلك الأمر أمر إيجاب بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى "وأما بنعمة ربك فحدث" وتضعيف عين الفعل يدل على الكثرة "التي يتطلبها فعل التبليغ والدعوة"[51].

وإيثار النهي عن قهر اليتيم ونهر السائل دون الأمر بنصرتهما لما يقتضيه النهي من طلب الكف، وهو مناسب لحالة ضعفهما فكان الخطاب للرسول بالنهي أصلح لضعفهما، وإيثار الأمر في تبليغ الوحي لما يتضمنه الأمر من طلب الفعل، وهو مناسب لتحمل أعباء الرسالة فكان الخطاب للرسول بالأمر أصلح. وبذلك يشير انتهاء السورة بالخطاب التكليفي الموجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمصدر بأداة الشرط التفصيلية "أمَّا" إلى أن الرسالة ماضية، وأن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى مستمرة، وأن نزول الوحي الذي ادعى المشركون انقطاعه متتابع ومستمر إلى أن تكتمل الشريعة، وهذا ما حدث بالفعل إذ اكتملت الشريعة باكتمال نزول الوحي.

---

49) قال الزركشي عن "أمّا":" كلمة فيها معنى الشرط بدليل لزوم الفاء في جوابها، وقدَّرها سيبويه بـ "مهما" وفائدتها في الكلام أنها تكسبه فضل تأكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت أنه لا محالة ذاهب، قلت: أمَّا زيد فذاهب، ولهذا قال سيبويه: مهما يكن من شيء فزيدٌ ذاهب" الزركشي: البرهان في علوم القرآن جـ4 ص242، وقال ابن هشام: وتفسير سيبويه " مدلٍ بفائدتين: بيان كونه توكيداً، وأنه في معنى الشرط" ابن هشام، الأنصاري: مغني البيب ص82.

50) استيتيه، سمير شريف: منازل الرؤية/ منهج تكاملي في قراءة النص ص54.

51) السابق.

ISSN : 2410-1818

5- تردد ضمير المخاطب الموجه إلى رسول الله بين الذكر والحذف والاستتار:

لوحظ تردد ضمير المخاطب من بداية السورة إلى نهايتها بعد القسم مباشرة، إذ بلغت ضمائر الخطاب ستة عشر ضميراً موزعة بين ضمائر مذكورة وضمائر محذوفة وضمائر مستترة:

أ- الضمائر المذكورة في قوله: "ما ودعك ربك....." و".....لك....." و" لسوف يعطيك ربك....." و" ألم يجدك....." و" ووجدك....." و" ووجدك.....".

ب- الضمائر المحذوفة في قوله: ".....وما قلى" و".....فآوى" و".....فهدى" و".....فأغنى".

ج- الضمائر المستترة في قوله: ".....فترضى" و".....فلا تقهر" و".....فلا تنهر" و".....فحدث" وهذا التعدد للضمائر رغم صغر السورة إلا أن السياق لم يتأثر سلباً بازدحام هذه الضمائر، بل إن توزعها بين الذكر والحذف والاستتار خلق جواً من الألفة والتحبب والتعطف والتلطف لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إن انتشار ضمائر المخاطب الموجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بداية السورة إلى نهايتها تشير إلى حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاعل في النص من أوله إلى آخره، إذ أخذ الحديث معه مساحة واسعة في النص بينما لم نجد أي ذكر للمشركين ولو تلميحاً سوى دحض ما ادعوه وافتروه في توديع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، فهم لا يستحقون الذكر، وإن كانت مقالتهم الكاذبة في توديع الله لرسوله هي السبب في نزول هذه السورة وإيذاناً باستمرار نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن اكتملت الشريعة باكتمال نزول الوحي.

6- التناسق الفني بين القسم والخطاب الموجه إلى الرسول في الآيات:

يظهر التناسق الفني بين القسم بـ﴿ وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) ﴾والخطاب الموجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآيات التالية للقسم في كون كل من الضحى الرائق[52] والليل الساجي أصفى آنين من آونة الليل والنهار وأشف آنين تسري فيهما التأملات، ولذلك يتناسب الضحى الرائق المنكشف والمنجلي بعد ظلمة الليل الساجي مع الرد على افتراءات المشركين والوعود الإلهية للرسول بعطاءات متعددة في قوله تعالى: "ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خيرٌ لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى"، كما يتناسب الليل[53] الساجي لا الليل على إطلاقة بوحشته وظلامه، الليل الساجي الذي يرق ويصفو، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف كجو اليتم والعيلة مع قوله تعالى: " ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا

52) قطب، سيد: التصوير الفني في القرآن، ص103، دار الشروق.

53) السابق.

ISSN : 2410-1818

تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث " وبذلك يتم التناسق[54] والاتساق، كما أن الآيات التالية للقسم الموجهة بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم متضمنة مشاعر الحنان والرحمة والرضا الشامل والشجى الشفيف يقول سيد قطب عن ذلك: " لقد أطلق التعبير جواً من الحنان اللطيف، والرحمة الوديعة، والرضا الشامل، والشجى الشفيف... ذلك الحنان وتلك الرحمة وذاك الرضا الشامل وهذا الشجى تتسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة، الرقيق اللفظ، ومن هذه الموسيقى السارية في التعبير، الموسيقى الرتيبة الحركات، الوئيدة الخطوات، الرقيقة الأصداء، الشجية الإيقاع، فلما أراد إطاراً لهذا الحنان اللطيف، ولهذه الرحمة الوديعة، ولهذا الرضا الشامل، ولهذا الشجى الشفيف، جعل الإطار من الضحى الرائق، ومن الليل الساجي "[55].

7- دلالات المد والسكون اللذين تنتهي بهما رؤوس آيات سورة الضحى:

انتهت رؤوس الآي الثماني الأولى بحرف مد هو الألف (ى) "والمد يناسب المقام بجانبيه النفسي والطبيعي، أما الجو النفسي فهو الذي تُحدثنا عنه التفاسير حين تروي أن الرسول العربي صلى الله عليه وسلم وقع في حزن شديد، بسبب فترة الوحي مدة من الزمان، فنزلت هذه السورة تدخل الطمأنينة على قلبه الكريم، فابتدأت السورة بالقسم، والقسم أمر هام جداً في تأكيد ما يرد بعده، وتأكيد أثره في إخراج الرسول من سطوة الحزن"[56]، وقد كان لهذا المد دور وظيفي في التعبير عن امتدادات المعاني المعبر عنها كتتابع نزول الوحي الذي ادعى المشركون انقطاعه، وامتداد الفتوحات الإسلامية، وإعلاء كلمة الدين، والشفاعة، وغيرها من العطاءات الماضية كإيواء الرسول وهدايته وإغنائه، وفيما يلي استعراض الآيات التي انتهت بحرف المد الألف (ى) ابتداءً بالقسم مروراً بالحديث عن العطاءات الإلهية المستقبلية والماضية التي أكدها القسم:

الآيتان الأولى والثانية: ففي القسم بـ﴿ وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) ﴾ نلحظ المد في آخر كلمة الضحى "لإحداث أمرين: أولهما: إحداث أثر أقوى في التنبيه على مضمون القسم، وذلك يعني في التحليل الأخير، إحداث نسق بين القسم ودرجة الانتباه، ولذلك نظائر في الاستعمالات اللغوية اليومية، فإن أحدنا إذا أراد من المخاطب درجة أعلى من الانتباه مد له صوته بكلمة، أو أعادها عليه: وثاني هذين الأمرين: إحداث نسق بين الظاهرة الطبيعية " الضحى " والبنيان اللغوي الذي يعبر عنها، فالضحى مدة من أول النهار، تمتد حتى تقترب من الزوال، أي أنها تتراخى حتى تقترب من الظهيرة، ولا تكون لحظية،

54) السابق.

55) السابق.

56) استيته، سمير شريف: منازل الرؤية ص ص 52 – 53.

ISSN : 2410-1818

والتراخي الذي تدل عليه كلمة " الضحى " يناسبه المد في آخرها، أي أنه نوع من النسق بين النسيج الصوتي والنسيج الدلالي، فكلاهما فيه تراخ وامتداد، ومثل ذلك يقال عن الليل، فإنه يستغرق ساعات، لكن كلمة الليل، لما لم يكن من شأنها امتداد آخرها، كما امتد آخر كلمة " الضحى" فقد أردفها تعالى بقوله: " إذا سجى " ليناسب الطول هنا، الطول هناك، والمد ثمة المد هنا "[57]

الآية الثالثة "ما ودعك ربك وما قلى" انتهت الآية بالفعل "قلى" المنتهي بحرف المد الألف، وهو في صورته المنفية وخلوه عن التقييد بمفعول "وما قلى" يوحي بمعنى التواصل الممتد الذي لا يتوقف، وهذا ما أسفر عنه نزول هذه السورة من تتابع لنزول الوحي حتى اكتملت الشريعة.

الآية الرابعة "وللآخرة خير لك من الأولى انتهت الآية بكلمة "الأولى" ولا يخفى ما فيها من امتداد، لكن تفضيل الآخرة عليها يجعل "الآخرة" أكثر امتداداً من الأولى" سواء كان المراد **بالآخرة** تتابع نزول الوحي بعد فترته أو الدار الآخرة لما في المعنيين من امتداد، فنزول الوحي استمر بعد نزول هذه السورة حتى اكتملت الشريعة، و"الآخرة" ضد "الأولى" ممتدة لا يعقبها فناء على خلاف "الأولى" التي يعقبها فناء.

الآية الخامسة "ولسوف يعطيك ربك فترضى" انتهت الآية بالفعل "فترضى" المنتهي بحرف المد الألف ليشير إلى امتداد العطاء الموعود به من الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة، فكون هذا العطاء مرضياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه إشارة إلى امتداد هذا العطاء امتداداً لا يحده حد، لأن الإنسان لا يرضيه عطاء فكلما أعطي شيئاً طلب المزيد، لكن هذا العطاء الإلهي مرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا معنى امتداده.

الآية السادسة "ألم يجدك يتيماً فآوى" انتهت الآية بالفعل "فآوى" المنتهي بحرف المد الألف، ليشير إلى "التراخي الزماني الذي يكون عليه فعل الإيواء"[58]، والفعل "فآوى" مسندٌ إلى الله سبحانه وتعالى ومطلقٌ خالٍ عن التقييد بمفعول، ليشير إلى طلاقة قدرته في الإيواء، فقد آواه من يتم وآوى به اليتامى.

الآية السابعة "ووجدك ضالاً فهدى" انتهت الآية بالفعل "فهدى" المنتهي بحرف المد الألف، ليشير إلى امتداد الهداية، والفعل "فهدى" مسندٌ إلى الله سبحانه وتعالى ومطلقٌ خالٍ عن التقييد بمفعول ليشير إلى طلاقة هدايته، فهداه الله وهدى به الناس.

57) السابق ص53.

58) السابق ص54.

ISSN : 2410-1818

الآية الثامنة "ووجدك عائلاً فأغنى" انتهت الآية بالفعل "فأغنى" المنتهي بحرف المد الألف، ليشير إلى امتداد الإغناء، والفعل "فأغنى" مسندٌ إلى الله سبحانه وتعالى، ومطلقٌ خالٍ عن التقييد بمفعول ليشير إلى طلاقة قدرته في الإغناء، فأغناه الله وأغنى به.

"ولكن النسقية هذه - المتمثلة في المد - تتخذ طابعاً آخر في الآيات الأخيرة الثلاث" [59]: "فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث" حيث انتهت رؤوس الآيات الثلاث الأخيرة بالسكون تناسباً مع الخطاب التكليفي الذي يقتضي الإلزام بالأمور التكليفية الواردة في الآيات والحث على سرعة امتثالها، "فالمد الذي شاهدناه في رؤوس الآي الثماني الأولى، لا يعود له دور وظيفي في الآيات الثلاث الأخيرة، وهذا مقصود طبعاً، فإن أقل قهر لليتيم منهي عنه، ولذلك لم تكن هناك نهاية تعبر عن تراخ وامتداد، ولا ينبغي أن يكونا موجودين في الواقع، ولذلك لم يكن لهما وجود في الإيقاع، إذن فلا بد من أن يكون الفعل الذي يعبر عن أقل قهر لليتيم سريعاً هكذا "تقهرْ"" [60] ومثله الفعلان "تنهرْ"، "فحدثْ".

59) السابق.

60) السابق.

ISSN : 2410-1818

الخلاصة والنتائج:

وختاما حاولت هذه الدراسة مقاربة التوالد الدلالي في الآية ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ... ﴾ الأنعام: ٣٦، وفي سورتي " الشمس" و" الضحى".

وقد خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج من أهمها:

1) خصوصية التعبير ب" إنما" من حيث التعبير بها عن الإثبات والنفي في آن واحد، مما أشاع التوالد الدلالي في التعبير بالآية عن المؤمنين والعصاة والكافرين.
2) البنى الدلالية للقسم في سورة " الشمس" أسفرت عن:

ا- التعبير عن الزمن من خلال القسم بالشمس والقمر والنهار والليل على التوالي.
ب-الإشارة إلى وحدانية الله من خلال القسم بمظاهر الكون المتعددة من: شمس وقمر ونهار وليل وسماء وأرض وإنسان، فوحدانية الله متمثلة في وحدة الكون وخلق الإنسان بجميع أجناسه ولغاته.

3) الدلالة بالقسم بالضحى والليل إذا سجى بتعاقبهما منذ ابتدأت الخليقة إلى أن تنتهي على استمرار الوحي حتى اكتمال الشريعة.
4) خصوصية التعبير القرآني في عطف الجمل الخبرية في سورة الضحى على الاستفهام التقريري لإشرابها معنى التقرير.
5) مناسبة دلالات المد التي انتهت بها الآيات الثمان الأولى من سورة الضحى للمعاني الممتدة التي عبرت عنها الآيات، ومناسبة دلالات السكون في الآيات الثلاث الأخيرة مع التكاليف التي تضمنتها الآيات لوجوب سرعة امتثال الأمور التكليفية بما فيها من نهي وأمر لأنها لا تحتمل التراخي الذي يناسبه المد.

أتمنى أن تكون الدراسة قد حققت ما طمحت إليه والله الموفق.

ISSN : 2410-1818

المصادر والمراجع

- إبراهيم على حسن، داود: بدائع القصر في النظم العربي، مطبعة الأمانة 1407هـ - 1986م.
- ابن جني: الخصائص، جـ1 ، ت: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.
- ابن منظور: لسان العرب مادة "قَصَرَ" دار صادر، بيروت – لبنان.
- ابن هشام، الأنصاري: مغني اللبيب ت د/ مازن المبارك ومحمد علي حمد الله مراجعة سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت لبنان، ط 5، 1979م.
- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ3، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.
- استيتيه، سمير شريف: منازل الرؤية منهج تكاملي في قراءة النص، دار وائل، ط 1 2003م عمَّان – الأردن.
- الاستراباذي، رضي الدين : شرح شافية ابن الحاجب جـ 2، ت محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1402هـ - 1982م.
- أولمان، ستيفن: دور الكلمة في اللغة ترجمة وتقديم د / كمال بشر، مكتبة الشباب بالقاهرة، 1975م.
- بشر، كمال: دراسات في علم اللغة القسم الثاني، دار المعارف بمصر.
- بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني في القرآن، دار المعارف – القاهرة 5ط 2، 1984م.
- الثعالبي، جواهر الحسان في تفسير القرآن جـ 1، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان.
- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ت 1977م، مكتبة القاهرة بمصر، وتعليق أبو فهد محمود محمد شاكر المدني بجدة ط 3، 1413هـ - 1992م.
- درويش، محي الدين: إعراب القرآن وبيانه، المجلد الأخير اليمامة، دمشق، دار ابن كثير دمشق، دار الإرشاد 1408هـ - 1988م
- الزركشي، : البرهان في علوم القرآن جـ 4 دار التراث–القاهرة ت / محمد أبو الفضل إبراهيم.
- الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف جـ 4، دار الفكر للطباعة والنشر. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: الدر المنظوم في التفسير بالمأثور جـ 3، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1411هـ - 1991م
- الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، تحقيق أحمد عميره، لجنة التحقيق والتراث بدار الوفاء، جـ2، ط1 1415هـ 1994م.

ISSN : 2410-1818

- الصاو : حاشية الصاوي على تفسير الجلالين.
- الطباطبائي، محمد بن حسين: الميزان في تفسير القرآن ج7، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قسم المقدمة.
- عبد اللطيف، محمد حماسة: لغة الشعر دراسة في الضرورة الشعرية، دار الشروق.
- غاليم، محمد: التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب ط1، 1987م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن مج 6، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان 1413هـ 1993م.
- القزويني، محمد بن عبد الرحمن: التلخيص في علوم البلاغة شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.
- قطب، سيد: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق.
- النحاس: إعراب القرآن جـ4 وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1421هـ - 2001م.
- الهتاري، عبد الله: الإعجاز البياني في العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، جامعة اليرموك، الأردن – إربد.
- الهمذاني، المنتجب حسين بن أبي العز: الفريد في إعراب القرآن المجيدجـ2تحقيق د/ فهمي حسين النمر، فؤاد علي مخير، دار الثقافة – الدوحة ط1 1411هـ - 1991م.

ISSN : 2410-1818

مجلـــة الأندلـــس للعلـــوم الإنسانيـــة والاجتماعيـــة
مجلـــة دوليـــة شهـريـــة علميـــة محكمـــة
الترقيـــم الدولي الإلكتروني : ISSN : 2410- 521X
الترقيـــم الدولـــي الورقـــي :ISSN :2410- 1818
البريد الإلكتروني : journal@andalusuniv.net

المجلـــة مفهرســـة فـــي المواقـــع الآتيـــة :

العام	2020	2021	2022	2023	2024
معامل أرسيف	0.0366	0.2692	0.1954	0.3759	0.3068
معامل التأثير العربي	1.60	1.60	1.73	1.25	1.55